حضارة تاهرت من خلال مصادر التاريخ الوسيط

Civilization Taharat through the sources of medieval history

صبان حبيب*

الملخص

مدينة تاهرت هي واحدة من المدن الرئيسية في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، وتذكر المصادر التاريخية أنها تهرتان القديمة التي سكنتها مثل الرومان والبربر، مما يدل على الحياة الاجتماعية والاقتصادية هناك، وتاهرت الحديثة التي تبعد خمسة أميال عن تاهرت القديمة حيث أسس الرستمين عاصمة سلالتهم بعد زراعتها، وأشارت تلك المصادر إلى أسلوبها المعماري وحياتها الاجتماعية ومواردها وخصائصها الاقتصادية، بالإضافة إلى الاستقرار والسلام، جعلت سلالتهم تبقى قائمة لفترة طويلة، وهكذا أصبحت منارة إسلامية إلى جانب المدن المغاربية القيروان وسجلماسة وفأس، وأضحت مركزًا للفقهاء والعلماء من شتى التخصصات، حيث يأتون للتعلم عن علمائها وأئمتها الذين اشتهروا بعلمهم المتميز، لكنها أصبحت بعد سقوطها مدينة هامشية خلافًا لما أشير إلى أنها أصبحت جزءًا من العبيديين، فكانت تحت حكم القبائل الأمازيغية، مخاطبة ولاءها للأمويين تارة، وللعبيديين تارة أخرى، وانتهى أمرها بالخضوع لقبائل بني توجين ثم الزيانيين من بعدهم.

الكلمات الدالة: تاهرت القديمة، تاهرت الحديثة، الحضارة، الثقافة، الفكر، الرستمين، الفقهاء، العلماء.

Abstract

The city of Tahert is one of the major cities of the Central Maghreb during the Middle Ages. historical sources mention that it is the ancient tahertan, which were inhabited with the Romans and Berbers, indicating thus the rich social and economic life there. And the modern Tahret, which is a region, five miles away from the old city, and this where Rustamides, after cultivating it, founded the capital of their dynasty. Those sources also indicated its architectural style, social life and economic resources and features. These conditions along with the stability and peace it was indulging, made their dynasty remain standing for a long time. Thus, it became, as it were, an Islamic beacon alongside with other Maghrebian cities such Kairouan, Sijilmasa and fes. and made it centre of jurists and scholars of a variety of disciplines where they come to learn its scholars and imams who were famous with their outstanding knowledge. However, after its fall, it became a marginal city, contrary to what was indicated that it had become part of the Obeidis daynasty, such that it came under the rule of the Berber tribes, announcing its loyalty to the Umayyads at one time and the Obeidis at others, and it ended up submitting to the actions of Bani Tujin and then the Zayanis after them.

Key words: Ancient Taharat, Modern Taharat, Civilization, Culture, Thought, Rustamin, Jurists, Scholars.

* قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر. تاريخ استلام البحث 2021/1/23، تاريخ قبوله 2021/03/16

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

المقدمة

عرفت بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنيين الأول والثاني الهجريين أحداث سياسية، انعكست على المنطقة بإعادة جدولة إعمارها عن طريق بناء المدن وتأسيس دعائم أركانها، بداية من برقة شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، مع التمدد إلى تخوم الصحراء جنوبًا، ومن أبرز المدن التي تم بناء سرح معالمها على أنقاض وأحواز غيرها مع بدايات النصف الثاني للقرن الثاني الهجري مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط التى يعود وجودها إلى ما قبل عملية الفتح، لكن خلال هذه الفترة ظهر مجدهاجليّاً إلى العالم الإسلامي بعد تأسيسها وبناء مدينتها من الرستمين أصحاب المذهب الأباضي، تعود لهم الأسبقية في عمارتها، مما جعل القصد والإقبال عليها من البشر كافة، وهذا الأمر أنعش وجودها وأعطى لها معالم الحاضرة الإسلامية في ازدهار حياتها الفكرية والاقتصادي. من هنا سنحاول استعراض غرض هذا البحث الذي يهدف إلى التحري واستظهار المعلومات وتحليلها لحاضرة تاهرت من طيات المصادر. وهنا نطرح الإشكال القائم حول كيفية معالجة مصادر تاريخ الفترة الوسيطة تاريخ حاضرة تاهرت؟ وسنحاول تتبع مجريات الأحداث التاريخية حول هذه الحاضرة وفق ما أوردته المصادر الإسلامية عن موقعها الجغرافي، وحدود ملكها، وأهم الأوضاع الاقتصادية والفكرية السائدة فيها، متتبعين المنهج الوصفي التحليلي في إظهار تاريخها بشكل دقيق، محاولين استجلاب قدر وافٍ من الدعائم والبراهين.

أما الدراسات التي سلطت الضوء على موضوع تاهرت فنجد رسالة دكتوراه لقرواش سمية موسومة (بإسهامات علماء تيهرت في الحركة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي 160هـ - 296هـ /777م - 909م). حيث عالجت الباحثة النشاط العلمي لأبرز علماء تاهرت من مناظرات علمية ومؤلفات ودورهم في إثراء الحياة الفكرية ببلاد المغرب الاسلامي.

ووجدنا مقالاً علمياً موسوماً بـ(الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة فيها) للباحثة سعدو التالية، تطرقت فيها إلى العامل البشري والاقتصادي ودوره في ازدهار الحياة الفكرية.

وثمة دراسة معنونة بـ (دور أئمة تيهرت الرستمية في تشجيع الحركة الفكرية خاصة العلوم الدينية) للباحثة مطهري فاطمة، وهي دراسة مهمة، أشارات من خلالها إلى دور الأئمة الرستمين، وتشجيعهم للحركة العلمية، لا سيما ما تعلق بالعلوم الشرعية مع ذكر دور العلماء الأباضية في تطوير العلوم الدينية، كالفقه والأصول وعلوم القرآن.

وعلى إثر هذه الدراسات نحاول إبراز دراستنا هذه في تسليط الضوء على حضارة تاهرت خلال الفترة الإسلامية الوسيطة، مرورًا بموقعها الجغرافي، وعوامل تأسيسها، وإعمارها مدينة، ثم ارتقائها إلى مصاف الحواضر الإسلامية، مع الإشارة إلى طبيعة علاقتها مع جيرانها ببلاد المغرب وبلدان المشرق الإسلامي. ثم أشرنا إلى تاهرت بعد انهيار ملك الرستميين إلى غاية اندماجها في ملك بني عبد الواد بحلول القرن التاسع الهجري/ العاشر الميلادي.

أولاً– المدينة تاهرت.

هي اسم لمدينتين متقابلتين في المغرب، كثيرة الأنداء والضباب، تقع بين قلعة بني حماد وتلمسان [1] ، تبعد عن مدينة المسيلة بست مراحل،[2] وأشار شمس الدين الأنصاري إلى مدينة تاهرت والأمم التي استوطنها قبل بنائها، فقال: تاهرت مدينتان، بينهما خمسة أميال [3] ، وكانت منذ القدم آهلة بالروم إلى أن قدمتها البربر، من لواتة ومزاتة وهوارة، ونزلوها من طرابلس[4] ونفوسة[5]، مشيرًا إلى أن البربر تقدموا من فلسطين إلى ناحية إفريقية، فاستقروا ناحية بر إفريقية، وتفرقوا في أنحائها، وكانت للروم، فوقعت بينهم حروب إلى أن تصالحوا، فاستوطن البربر الجبال والرمال، وسكن الروم المدن والجزائر، ولا زال الأمر هكذا إلى فتحها المسلمون سنة 62هـ بقيادة عقبة بن نافع. [6]

1. 1. الموقع الجغرافي لحضارة تاهرت.

ذكر أن تاهرت مدينتان قديمة وحديثة، فالقديمة لا يعرف تاريخ بنائها، تقع في الجهة الشرقية من المدينة الحديثة، وتقع على حصن لبر قجانة، وقيل أنها على جبل ليس عالياً، وتبعد عن المدينة الحديثة خمسة أميال، لكن اختلف في نسبة قصبة المعصومة، فالبكري وابن القطان نسبوها للحديثة، أما صاحب الاستبصار والحميري نسبوها إلى تاهرت القديمة. [7]

واتفقت جل المصادر على أن تاهرت مدينتان إحداهما قديمة والأخرى حديثة في وصفها من شتى المجالات الجغرافية والسياسية والاقتصادية والفكرية، فصاحب حدود العالم لمؤلف مجهول ذكر أنها مدينة عظيمة، وهي كورة منفصلة عن أعمال إفريقية. [8]

---

[1] – اسمها تافرازت وهي مدينة في المغرب بناها المرابطون. ياقوت الحموي، نفسه، ج2، ص: 44.

[2] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397. 1977، ج2، ص: 7.

[3] – الأنصاري أبي عبد الله ، نخلة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية، طربورغ، 1865 .1281، ص: 237.

[4] – هي مدينة على شاطئ البحر، سكنها أخلاط من البربر، فتحها عمرو بن العاص سنة 23هـ. ياقوت الحموي، نفسه، ج4، ص: 25.

[5] هي جبال في بلاد المغرب، تقع شرق إفريقية، وكان أهلها على مذهب الإباضية، ياقوت الحموي، نفسه، ج5، ص: 196.

[6] الأنصاري، المصدر السابق، ص: 267.

[7] – الإدريسي أبي عبد الله ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، القاهرة، ج3، ص:255. 256/. الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص: 126 /. ياقوت الحموي، نفسه، ج2، ص: 8 /. البكري أبي عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب المصري، القاهرة، ص: 67/. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، س كولان و إليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983. ج1، ص: 25 /. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تح، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، الكويت، 1985، ص: 178/. ابن حوقل أبي القاسم، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص: 86.

[8] – مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح، يوسف الهادي، ط1، دار الثقافة، مصر، القاهر، 1419.1999، ص: 134.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

أما الإدريسي فقال بأن مدينة تاهرت كانت في ما سبق مدينتين كبيرتين، إحداهما قديمة والأخرى محدثة [9] ، وذكر ابن حوقل أن القديمة أزليه ذات صور، وهي على جبل ليس بالعالي، وبها كثير من الناس، وفيها جامع، وفي المحدثة أيضا جامع. [10]

2.1: الظروف السياسية لنشأة تاهرت الحديثة.

حول الظروف السياسية لتأسيس تاهرت الحديثة ذكر أنه كانت إحدى القبائل البربرية –تدعى ورفجومة– عاثت فسادًا في القيروان، عقب تملك عبد الأعلى بن السمح المعافري طرابلس سنة 140 [11]، فتوجه إليها، وأخرجهم منها، وعين واليًا عليها، وهو عبد الرحمن بن رستم[12] سنة 141هـ، وسار إلى طرابلس، ولزمها مدة حتى تغلّب عليه العباسيون سنة 144هـ، ففر عامله عبد الرحمن إلى تاهرت[13] ، وبنى مدينة نزلها، وكانت في القديم مدينة قديمة، فبناها وبقي فيها إلى وفاته سنة 168هـ[14]، وذكر اليعقوبي في البلدان أن تاهرت تسمى عراق المغرب: " تغلب عليها قوم من الفرس، يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمنن بن رستم الفارسي، وكان الأخير يتولى إفريقية، وصار والده إلى تاهرت، فصاروا إباضية فيها [15] .

1.3 : بناء تاهرت الحديثة وإعمارها.

على إثر تلك الأحداث التي جرت للإباضية بإفريقية وطرابلس فر رؤوسها وشيوخها، وتوغلوا في الجنوب ناحية موضع تاهرت بجبل سوفجج[16]، واجتمعت طوائف البربر الإباضية من لماية ولواته ورجال نفزة حول عبد الرحمن بن رستم، فاختط مدينتها سنة 144هـ،[17] واشتمل جمعهم، فقرروا بعدها بناء مدينة؛ لتحصين الإسلام وحرزه، فتم اختياره إمامًا للجماعة الإباضية، يرجعون إليه في مذهبهم؛ كونه أحد حملة العلم، وعامل أبي الخطاب، وومتجرداً من العصبية القبلية، يسهل خلعه. [18]

---

[9]. الإدريسي، نفسه، 255.

[10] – ابن حوقل، نفسه، ص: 86 /. ابن عذارى، نفسه، ج1، ص: 25.

[11] – يحي بن أبي زكرياء، سير الأئمة وأخبارهم، تح، إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1402. 1982، ص: 58.60 /. ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط، خليل شحادة، مر، سهيل زكار، ج4، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421. 2000، ص: 245.

[12]قيل أن بنور رستم ملوك تاهرت من أصول فارسية. ابن حزم علي، جمهرة أنساب العرب، تح، إليقي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1368، 1947، ص: 475.

[13] الدرجيني أبي العباس، طبقات المشايخ بالمغرب، تح، إبراهيم طلاي، ج1، مطبعة البحث، قسنطينة، الجزائر، 1394. 1974، ص: 35.

[14] ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص:245 /. أبي زكرياء، نفسه، ص: 63 /. ابن عذارى، نفسه، ج1، ص: 196 /. البكري، نفسه، ص: 68.

[15] اليعقوبي أحمد، البلدان، وضع الحواشي، محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لينان، ب ت، ص:192.

[16] أبي زكرياء، المصدر السابق، ص:71.

[17] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 147.

[18] – ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستمين، تح، محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر، 198، ص: 25.26. أبي زكرياء، نفسه،ص: 82.

تشير الرويات التاريخية أنهم لما أرادوا بناء القديمة كانوا يبنونها في النهار، فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة. "[19]

وحول اختطاط هذه المدينة واختيار المكان ساقت لنا المصادر عدة حكايات أسطورية، منها بأنهم أرسلوا الروافد في الأرض، فرجعوا فدلوهم على موضع تاهرت[20]، واتفق جمهور المسلمين مع أهل تاهرت القديمة على أشياء معلومة تدفع لأهلها من ماله، وكانت قبل هذا غياظًا مليئة بالوحوش والسباع والهوام، فلما قرروا عمارتها أمر منادياً ينادي من فيها من الحيوانات أن اخرجوا عنا، فقد أردنا عمارتها، وأجلوهم ثلاثة أيام. فقيل إنهم شاهدوا تلك الوحوش تغادرها، فرغبهم في إنشاها وعمارتها، فتمت تهيئة مكان تاهرت، وعمدوا إلى تحديد بناء المسجد الجامع فيها. فقال أبو زكرياء: "ثم أخذوا في إنشائها وعمارتها، فجعلوها ديارًا وقصورًا " [21].

ولعل سبب خلو هذه البقاع من التعمير ما أشار إليه صاحب الاستبصار في قصة أسطورية، بوجود جبل عظيم يعرف بقلقل، وهو جبل كثير الخصب والعيون والأنهار، وفيه آثار عمائر كثيرة، وبيوت محصنة، وقرى واسعة، لا أنيس فيها، ولا يسكنها خلق، ويقال أن الجن أخلت تلك العمائر والبلاد، بحيث أنه كانت ترى في تلك الصحاري نيران الجن، ويسمع عزفهم وغناؤهم، يختطفون الناس، والذي يفلت منهم يسمى مبدول، أي أنه تبدل بعيشه حياة الجن التي يرويها بعد عودته. [22]

ويروي لنا البكري عن قصة بنائها قائلًا:" فاجتمعت إليه الإباضية، واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا موضع تاهرت اليوم، وهو غيضة أشبة، ونزل عبد الرحمن منه موضعًا مربعًا لا شجر فيه، فقال البربر نزل تاقدامت تفسيره بالدف شبهوه بالدف؛ لتربيعه وإدراكتهم صلاة الجمعة، فصلى بهم، وباشروا البناء في ذلك الموضع مسجدًا، وقطعوا خشبه من تلك الشعراء، فهو كذاك إلى اليوم، وهو مسجد جامعها، وهو من أربعة بلاطات". [23]

شارك عبد الرحمن بن رستم في إعمار المدينة، فعندما وفدت رسل المشرق محملة الأموال لتسليمها له، وجدوه أعلى بيته، يعمل بيده السقف ،والعبد يناوله الطين [24]. فأشار عليه أصحابه أن يبث تلك الأموال في فقراء المسلمين، وشراء السلاح والعدة، ففعل ذلك بمحضر تلك الرسل "[25] ، وذكر أن هذه الأموال ساهمت في العمارة والبناء

---

[19] – الحموي، المصدر السابق، ج2، ص: 8 /. البكري، نفسه، ص: 67.

[20] – ذكر أنه عقب رجوع الرواد وجدوا أن تاهرت القديمة كانت مدينة قد خربت واتفق جمهور المسلمين مع أهلها على بنيانها على أخذ أشياء معلومة من غلتها، الأزكوي سرحان، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تح، محمد نجيب حبيب، ومحمود بن مبارك السليمي، ج3، وزارة التراث والثقافة العمانية، ط2، 1434. 2013: ص: 31.

[21] – أبي زكرياء، نفسه، ص: 81 /. الشماخي أحمد بن سعيد، السير، تح، أحمد بن سعود السيابي، ج1، مطبعة النهضة، عمان، مسقط، 1407، 1987، ص: 124.

[22] – مؤلف مجهول، عجائب الإستبصار، ص: 179.

[23] – البكري، نفسه، ص: 67. 68

[24] ابن الصغير، نفسه، ص: 29 .

[25] أبي زكرياء، نفسه، ص: 84 /. ابن الصغير، نفسه، ص: 30.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

وإحياء عيش الفقراء وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغيرها؛ مما فسح لهم المجال في الاتساع، فأتتهم الوفود من كل الأمصار، لذا فسح للرستمين الاستقواء الذي أسهم في أمنهم، وألحق الإخافة بأعدائهم، وقال أيضا ليس أحد ينزل بهم من الغرباء من الكوفة والبصرة إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم "وكل هذا في رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في بناء عاصمته؛ من شراء السلاح والمعدات، ولما عادت الرسل مرة ثانية بالأموال وجدوا أحوال المدينة تغيرت، فشاهدوا القصور والبساتين والرحاء والخيول والأسوار وكثرة العبيد والخدام، فردها إليهم تورعًا وزهدًا في الدنيا ورغبته في الآخرة، فتم الإقرار بإمامته، وأضحت تيهرت حصنًا لجماعة أهل الدعوة الإباضية. [26]

كل هذا أهّلها أن تكون مركزاً حضارياً يقتدى به في الحواضر الإسلامية مشرقًا ومغربًا.

وعن تطور تاهرت؛ فأشارت المصادر أن إمارة الرستمين بلغت أوجها في عهد الإمام أفلح [27]، الذي يعدّ عهده من أزهى عصور الدولة الرستمية[28]، فقد عمّر طويلًا في إمارته، واشتهر في ملكه، وبنى عمائر القصور والأبواب والجفان، وكثرت الأموال والمستغلات، وجاءته الوفود من كل الأمصار بأنواع التجارات، وتنافس الناس في بنيان القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار، فبنى "أبان وحموية"؛ القصرين المعروفين فيهما بأملاق، وبنى عبد الواحد قصره، وانتشرت القبائل، وعمرت العمائر، وابتنى أفلح القصور واتخذ بابًا من حديد، وبني الجفان، وتنافس الناس في البنيان[29].

ووصفت المصادر أن لتاهرت الحديثة أربعة أبواب: باب الصف، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المواجن[30].

ثانياً– العوامل المساعدة على بنائها.

لا شكّ أن إنعكاس مجريات الأحداث السياسية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري، نتج عنها ظهور دويلات مستقلة ذات اتجاهات مذهبية، ولا سيما الدولة الرستمية التي ظهرت للوجود بسبب عدة عوامل، منها: الدينية والجغرافية والاقتصادية والسياسية.

نستخلص من المجريات السابقة، وما نتج عنها من توجه الرستمين إلى منطقة تاهرت؛ أن حصانة الموقع الجغرافي ومناعته ساهم بدرجة كبيرة في استقرارها، وما يدل على ذلك فشل حصار عامل العباسين ابن الأشعث

---

[26] ابن الصغير، نفسه، ص: 28.35 .

[27] هو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثالث الأئمة الإباضية بتاهرت بويع بعد وفاة أبيه سنة 190هـ كان من دهاة الإباضية فقهًا وحزمًا. الزركلي خير الدين، الأعلام، ج2، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان، ط15، 2002، ص: 5.

[28] مطهري فطيمة، دور أئمة تيهرت الرستمية في تشجيع وتطوير الحركة الفكرية خاصة العلوم الدينية، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج1، العدد1، 2013، تلمسان الجزائر ، ص: 110.

[29] ابن الصغير، نفسه، ص: 53.

[30] البكري، نفسه، ص: 66.

لها لما ذاع صيتها[31]، إضافة إلى حلول وفود إباضية من أنحاء بلاد المغرب نحو تاهرت، الأمر الذي أعطاها الصبغة العقدية، وأضفى عليها روح المذهبية، وكذا الدعم المالي من إباضية المغرب والمشرق أسهم في تقويتها وبناء أركانها، فجمع أموال الصدقات بطرابلس وإرسالها للإمام عبد الرحمن قبل توليه إمامة الظهور بتاهرت من يعقوب بن حبيب الكندي، المعروف بأبي حاتم الملزوزي بعد مقتل الإمام ابن الخطاب" 145هـ .155هـ وكذا المساعدات المالية من إباضية المشرق التي كان لها دور في عمارة المدينة[32].

كما كان للقبلية دور في تثبيت أركانها، فكانت بعض القبائل درعاً لتاهرت ضد الطامعين فيها، كبني العباس، فنفوسة بالغت في التأييد للسلطان تاهرت، بل منعت جند العباسين من المرور لتقويضها سنة 283هـ ، حتى قال الإمام عبد الوهاب في ذلك: "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"[33]

1.2: حدودها

يتضح من خلال المصادر أن معالم حدود تاهرت منذ تأسيسها إلى سقوطها لم تكن واضحة، فكانت تتسع وتتقلص وفق مجريات الأحداث السياسية، فذكر الشماخي اشتمال الدولة الرستمية على أعداد من الواحات، أهمها وادي ريغ وورجلان، بالإضافة إلى الزاب ببلاد المغرب الأوسط، وجزء من بلاد الجريد، وبعض الأعمال كسرت وقابس وغيرها من الأعمال بإفريقية [34].

وذكر ابن الصغير أن أقصى اتساع لحاضرة تاهرت كان على عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم المتوفي 190هـ ممتدة حدود مدينة طرابلس وملأت المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان[35].

غير أننا نجد محمد الميلي يعطي وصفًا دقيقاً لحدودها قائلا: المملكة الرستمية واقعة بين مملكة الأغالبة شرقًا والأدارسة غربًا، وتمتد من شماليها ممالك صغيرة للعلويين إخوان الأدارسة، وبنفسح لها المجال جنوبًا إلى ورقلة، ويمتد منها شريط على واد ريغ إلى الجريد وجبال دمر إلى طرابلس ونفوسة[36].

---

[31] – أبي زكرياء، نفسه، ص: 72.

[32] – أبي زكرياء، نفسه، ص– ص: 73، 84 .

[33] – أبي زكرياء، نفسه، ص: 155.

[34] – الشماخي، نفسه، ج1، ص– ص: 184. 185. 169. 169. 175. ج2، ص: 47.

[35] – ابن الصغير، نفسه، ص: 39.

[36] – محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 65.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

2. 2: الحياة الاقتصادية بحاضرة تاهرت

إن موقع تاهرت قرب الأودية ومجاري المياه من الأنهار والعيون كفل لأهلها الاستقرار واستمرار الحياة الإنسانية بها، أهّلهم لممارسة شتّى الأنشطة الاقتصادية، كالفلاحة والتجارة والصناعة وبناء المرافق العمومية، وتشير المصادر إلى الأنشطة الاقتصادية قبل تأسيس تاهرت الحديثة كانت لها تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبأراضها مزارع وضياع جمة، وبها من نتاج البرذين والخيل كل شيء حسن، وبها البقر والغنم كثيرًا جدًا، وكذلك العسل والسمن وسائر غلائها كثيرة، وبها مياه متدفقة، وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبًا من الفواكه الحسنة، ولها سور صخريّ، وبها قصبة منيعة على سوقها المسماة المعصومة [37].

كما كان هناك تنوع للنشاط الفلاحي كالزراعة التي امتازت بها تاهرت الحديثة، أشار الدرجيني إلى أن مرداس مهاجر من أهل الجبل كان يأتي تاهرت في موسم الحصاد عقب الانتهاء من موسم الحصاد وعملية لقط السنابل ورعي الأغنام، فيتعقبهم في اللقط، فيلقط ما يكفيه لعام من قوت[38].

وذكر صاحب الاستبصار أن بها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حُسنًا وطعمة ورائحة، وقرب تاهرت قلعة هوارة، وهي في جبل خصب فيه بساتين وأشجار ومزارع وأعناب[39].

وذكر اليعقوبي أنها أهلة بين جلال وأودية ليس لها فضاء، بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاثة رحلات، في مستوى من الأرض وفي بعضها سباخ، واد يقال له وادي شلف، وعليه قرى وعمارة، يفيض كما يفيض نيل مصر، يزرع عليه العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب، ويصير إلى جبل يقال له أنقبق، ثم يخرج إلى بلد نفزة، ثم يصير إلى البر المالح، وشرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون، يأتي بعضها من الصحراء وبعضها من جبل قبلي، يقال له جزول، لم يجذب زرع ذلك البلد قط، إلا أن يصيبه ريح أو برد، وهو جبل متصل بالسوس، يسميه أهل السوس درن، ويسمى بتاهرت جزول، ويسمى بالزاب أوراس[40]، وعبر صاحب حدود العالم أن تاهرت ذات تجارات وفيرة[41].ووصف المقدسي تاهرت:" هي اسم القصبة، وهي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار، والتقت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطاب اللبيب، ويفضلونها على دمشق وعلى قرطبة[42].

---

[37] – الإدريسي، المصدر السابق، ص: 255. 256 /. الحموي، نفسه، ج2، ص: 8 /. البكري، نفسه، ص: 67 /. ابن حوقل، نفسه، ص: 86.

[38] – الدرجيني، نفسه، ج2، ص: 293.

[39] – الأنصاري، الاستبصار، نفسه، ص: 178.

[40]– اليعقوبي، البلدان، ص:197. 198.

[41] – مؤلف مجهول، حدود العالم، نفسه، ص: 134.

[42]– البشاري أبي عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبع بريل، 1877. ص: 228.

كما امتازت بعض أعمال تاهرت كاوركلان[43] وطرابلس بمحاصيل زراعية من النخيل والخضروات والفواكه والزيتون والكروم والأعناب وزراعة الشعير، واشتهرت بالحمامات والمخابز. فقال ابن سعيد: إن فارقت طرابلس لن تلتقي مدينة بها حمامًا ولا خبازاً إلى أن تصل الإسكندرية[44].

قال أبو إسحاق الكرخي أن تاهرت مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزرع والمياه[45] .

ولاشك أن الطابع الفلاحي لحاضرة تاهرت ووفرة منتجاتها شجع الأئمة الرستمين للدخول في مجال التجارة، فالإمام عبد الوهاب كان حاذقًا بالتجارة حتى اتسعت أمواله[46].

ونجد ابنه أفلح تأتيه الرفاق والوفود من كل الأمصار بأنواع التجارات[47]، فكانت له علاقة مع ملوك السودان الغربي مودة، مما سمح للمسافرين من التجار التنقل بين البلدين من وركلان إلى بلاد السودان، والطرق بينها آمنة؛ بسبب محافظة الأئمة الرستمين على هذه الطرق، وكان تجار وركلان أغنياء يتجولون في بلاد السودان، فيخرجون منها التبر، ويحفظونه في بلدهم باسم بلدهم، "يطلعون منه سكة دراهم ودنانير، كما كان لهورة خاصة بعد سقوط

سلطان الرستمين تجارة النحاس والأكسية والصوف والعمائم والمآزر وصنوف الزجاج والأصداف والأحجار، وإن دل على شيء فإنه يدل على أسبقية تجارتهم[48].

كما انتشرت الأسواق فيها كسوق ابن وردة الأعجمي الذي ابتناه وأصبح يسمى باسمه، ونال الرخاء في عهد أفلح حتى اكتسبت القبائل المنتشرة حول تاهرت الأموال واتخذت العبيد والخيول[49].

أما عن كيفية ممارسة الأنشطة التجارية لدى العناصر البربرية المحيطة بتاهرت فذكرت المصادر إلى وجود وحدات الكيل عندهم المعروفة بـ" المد"، وأهم المواد التي كانت تخضع للكيل الزيت والفلفل واللحم [50].

كما أشارت إلى جملة من العلاقات التجارية لتاهرت مع بقية مناطق العالم الإسلامي متعرضة لشتّى المسالك المؤدية لها، كاشتهارها بعدة مراسي بحرية، كمرسى فروخ على ساحل البحر الذي كانت ترسو به مراكب تاهرت، وكان له إسهام في النشاط التجاري مع بلاد الأندلس[51].

---

[43] – هي بلد في الصحراء في جنوب إفريقية غرب مدينة غدامس تتميز بكثير الزرع.الحميري ، نفسه، ص: 600.

[44] – ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تح، إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري، بيروت، 1970، ص: 126 . ص: 145. 146/. الحموي، نفسه، ج5، ص: 297.

[45] – الباروني عبد الله، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج2، مطبعة الأزهار البارونية، ص: 24.

[46] – الشماخي، نفسه، ج2، ص: 140.

[47] – ابن الصغير، نفسه، ص: 52.

[48] – الباروني، نفسه، ج2، ص: 184. 185

[49]– ابن الصغير، نفسه، ص: 55.

[50]– البكري، نفسه، ص: 69.

[51] – اليعقوبي، نفسه، ص: 192.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

2. 3: الحياة الفكرية لحاضرة تاهرت.

عرفت تاهرت حركة علمية واسعة جعلها قبلة لطلاب العلم، وقصدها العلماء الذين حف بهم البلاط الرستمي منهم مروان بن عمران ومسعود الأندلسيان،[52] وحل بها شعيب بن معروف المصري أحد مشايخ الإباضية[53]، والعالِم عمروس بن فتح النفوسي ت 283 هـ، العالم الكبير صاحب الرويات الذي استنسخ مدونة ابن غانم ت 300هـ[54] بمساعدة أخته، وهي عبارة عن ديوان أطلق عليه الغانمية، وكان ذلك رغبة منه في إحياء العلم، وذكر الدرجني أنه لولا هذا الديوان لما بقي للإباضية ما يعتمد عليه خاصة بعد سقوط تاهرت [55].

كما ظهر بها علماء من البربر، كشكر بن صالح الكتامي، وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنيي وغيرهم[56] وازدهرت بها الحركة العلمية في شتّى المجالات الفكرية والثقافية؛ نتيجة دعائم الفكر الإباضي، الذي حمله رواده إلى تاهرت التي نسب إليها العديد من العلماء والفقهاء المؤرخين والشعراء، على غرار بعض الوافدين إليها من شتىالأقطار الإسلامية، ولعل كل هذا راجع لاهتمام الأئمة الرستمين بالعلم ومجالاته وتشجيع الحركة الفكرية [57]، فذكرت المصادر الإباضية أن بيت الرستميين بيت علوم وجامع لفنونها، من علم التفسير والحديث والفرائض والأصول والفروع وعلم اللسان وعلم النجوم وعلم النحو والإعراب وعلم اختلاف الناس، فاشتهر بعضهم في علم الفلك، كالإمام عبد الرحمن بن رستم الذي ألف كتاباً في تفسير القرآن، والإمام عبد الوهاب بعث بألف دينار لإخوانه بالبصرة؛ ليشتروا له كتبًا، فاقتضى أمرهم أن يشتروا بالأموال ورقًا لنسخ كتب المشارقة، وتطوعوا بالمداد وأجرة النساخ، فنسخوا الكثير من الكتب والدواوين، وبعثوا بها إليه، فاطلع عليها كلها، وقال الحمد الله إذ ليس فيه مسألة غربت عنى إلا مسألتان، ولو سئلت عنهما لأجبت قياسا على نظرائهما [58]، وله تأليف في أجوبة في الفقه والأحكام وأصول الدين المعروف بنوازل نفوسة[59].

كما كان للإمام عبد الوهاب إسهام فكري في علم الجدل، ويتضح ذلك من مناظرات الجدلية مع الواصلية، مما نتج عنه ظهور فقهاء المناظرة ومنتحليها من الذابين عن المذهب، وكان لعلماء نفوسة أثر على الحياة الثقافية بتاهرت، فاشتهر منهم مهدي النفوسي العالم المناظر الورع الزاهد الذي قيل أنه رد سبعين عاملاً من المعتزلة إلى

---

[52] الإزكوي، نفسه، ج3، ص: 34.36 /. أبي زكرياء، نفسه، ص: 86 .

[53] الشماخي، نفسه، ج1، ص: 131. 132. الدرجيني، ج1، ص: 50.

[54] الوسياني سليمان، سير الوسياني، تح، عمر بن لقمان بن حمو سليمان بو عصبانة، ج1، وزارة التراث والثقافة، مسقط ، عمان، 1430. 2009، ج1، ض: 234.

[55] الوسياني، نفسه، ص: 233 .

[56] الأزكوي، نفسه، ج3، ص: 34.

[57] سعدو التالية، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها، مجلة عصور الجديدة، العدد1، 2011هـ/ 1432هـ، وهران، الجزائر، ص: 63. فطيمة مطهري، المرجع السابق، ص: 107.

[58] ابن الصغير، نفسه، ص: 37 / أبي زكرياء، نفسه، ص: 99 .

[59] الشماخي، نفسه، ج1، ص: 167 / ابن الصغير، نفسه، ص:39.

مذهب الإباضي ومحمد بن يانس العالم بفنون التفسير، وقد توجهوا إلى تاهرت لمساندة الإمام عبد الوهاب بناء على طلبه بهدف الإحتجاج على الواصلية[60] ورد أفكارهم[61].

وأشار البكري أن ميمون بن عبد الرحمان بن عبد الوهاب بن رستم مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو رأس الاباضية وإمامهم وإمام الصفرية[62] والواصلية[63].

كما كان الإمام أفلح 188هـ، 238هـ متفقها عالمًا بأخيار الماضين له معرفة بالأحكام والتفسير وعلم النجامة، حيث أنه كان يجلس لأربع حلق لتدريس مختلف أصناف العلوم [64].

والإمام أبو اليقظان241هـ 281هـ هو الآخر كان يعقد مجالسه العلمية في المسجد الجامع بتاهرت، واشتهر في عهده علماء إباضية، كمحمود بن بكر أحد رؤوس مذهب الإباضية، والراد عن مقالات الفرق ومؤلف الكتب في الرد على مخالفيه، وممن اشتهروا الفقيه العالم عبد الله بن اللمطي من الذاب عن المذهب الإباضي والمدافعة عنه، وهو الذي ناظر الواصلية وسائر الفرق، كتلك التي جرت بنهر بتاهرت، وممن اشتهر من علماء وفقهاء الإباضية في الأدب الفقه والكلام واللغة والنحو والوثائق أبي عبيدة الأعرج الذي شغف كل أهل المغرب بعلمه، وذكر أن أبي اليقظان سمع منه "كتاب إصلاح الغلط من تأليف عبد الله بن مسلم بن قتيبة "[65].

كما شهدت الحياة الفكرية تعايشًا بين الإباضية الأقرب لمذهب أهل السنة من حيث الاعتدال مع بقية شرائح المجتمع خلال فترة حكم أبي حاتم 281هـ، 294هـ، فالقضاة والفقهاء وأصحاب الأموال والشرطة لم يسعَ بعضهم بالآخر، فكانت مساجدهم عامرة، ويجتمعون فيها لا ينكرون على خطيبهم شيئًا، ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى غيره عمل معه نفس الشيء[66].

---

[60] هم فرقة من المعتزلة من أتباع واصل بن عطاء الغزال الأبلع، اختلفوا مع أمتهم من الفرق الإسلامية بزعمهم أن الإكثار من مرتكب الكبيرة من الفساق. البغدادي أبو منصور ت429هـ، الملل والنحل، تح، البير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1986، ص: 86.

[61] الدرجيني، نفسه، ج1، ص: 61. 64 /. البغطوري، نفسه، ص: 226 ./ قوراش سمية، إسهمات علماء تاهرت في الحركة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي160هـ، 296هـ /777م، 909م، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر،2018/ 2019.ص: 107. سعدو التالية، المصدر السابق، ص: 66.

[62] يسمون بالصفرية الزيادية وهم اتباع زياد بن الأصفر من مكفري فرقة الأزارقة ومخاليفيهم في مبدأ قتل الأطفال. البغدادي، المصدر نفسه، ص: 67.

[63] البكري، نفسه، ص: 67.

[64] – الدرجيني، نفسه، ج1، ص77. 78 / . أبي زكرياء، نفسه، ص: 40، 136.

[65] – البرادي أبو القاسم بن إبراهيم، الجواهر المنتقاة، تع: أحمد بن سعود السيابي، ط1، دار الحكمة، لندن، 2014، ص: 199. 200 /. ابن الصغير، نفسه، ص:81. 85.

[66] – ابن الصغير، نفسه، ص: 102. قوراش سمية، المرجع السابق، ص: 104.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

وممن اشتهروا بتاهرت ابن الصغير المالكي الذي يعدّ أهم مؤرخ للدولة الرستمية من الوافدين إليها خلال فترة أيام الإمام أبي اليقظان ت 281هـ وإمارته، وحضر مجالسه، وجرت له مناظرة علمية مع أحد علمائها من وجهاء الإباضية، وهو أبو الربيع سليمان الهواري النفوسي حول مسائل فقهية[67].

وظهر بها عدة شعراء ومحدثين، منهم أبو الفضل أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزاز التاهرتي، وأبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي ت 296هـ الذي وصف أجواء تاهرت قائلًا:

ما أخشن البرد وريعانه وأطري الشمس بتاهرتِ

تبدو من الغيم إذا مابدت كأنها تنشر من تحتِ

لم تقتصر الحياة العلمية وازدهارها على العلماء فحسب، بل أشارت المصادر إلى دور العنصر النسوي في إثراء الحياة الفكرية والثقافية، فنجد زورغ الأرجانية التي يقال أن معها ثلث علم أهل الجبل، وكذلك العالمة النفوسية تكسيلت أم يحي المشهورة بقوة الحفظ، وأم الربيع الوريورية ت 250هـ التي كان يلجأ إليها العلماء في المناقشات العلمية [68].

ثالثًا: تاهرت وعلاقاتها مع الأندلس.

1.3: مع بلاد الأندلس:

تعود أول علاقة للرستمين مع بني أمية إلى عبد الرحمن الداخل الذي استجار بهم عقب فراره من العباسين متوجهًا إلى الأندلس مرورًا بتاهرت حاضرة على العهد الرستمي، فقال ابن عبد الحكم:" إن عبد الرحمن استجار ببني رستم ملوك تيهرت بالمغرب الأوسط"[69].

والمرجح كما أشار إليه ابن خلدون في وفود عبد الرحمن الداخل سنة 138 هـ على أنصار الإمام عبد الرحمن بن رستم من لواتة الإباضين لحلف قديم بينهم، كان قبل تولية ابن رستم للقيروان، حتى أن ابن عذارى يشير إلى فرار أحد الأئمة الرستمين، وهو أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان ت 294هـ إلى حصن لواتة سنة 282 هـ ، بعد اضطراب أمره بإفريقية، بل تعداه إلى أن أصبحت لواتة قاعدة لانطلاقه في حروبه ضد تاهرت[70]، وهذا ما يرجح رواية ابن عبد الحكم، في مرور عبد الرحمن الداخل بأنصار بني رستم قبل تأسيسهم لتاهرت.

---

[67] ابن الصغير، نفسه، ص: 102.

[68] مطهري فطيمة، عوامل ازدهار الحياة الفكرية والثقافية في الدولة الرستمية ودرو المرأة فيها خلال القرنين2هـ، 3هـ/ 8م، 9م، مجلة كان التاريخية، العدد19، 2013، ص: 106،

[69] المقري أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت، 1408. 1988، ص: 29.

[70] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 158. 159 /. ابن عذارى، نفسه، ج1، ص: 197.

وأورد ابن حيان أن أسرة بني رستم ولي بعض أفرادها القيادة والحجابة والوزارة للأمويين في الأندلس، وكانت علاقتهم مع مواليهم تتسن بالصداقة والمودة على الرغم من الاختلاف المذهبي للمملكتين، ولعل هذا يهدف لمظاهرة العباسيين الأعداء التقليدين للأمويين ففي سنة 207هـ، كما ذكر ابن سعيد قدوم بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت على عبد الرحمن بن الحكم الذي استقبلهم استقبالًا حافلاً، أنفق فيه الأمير أموالًا طائلة، قدرت بألف ألف دينار [71].

وما يوثق علاقة البيت الرستمي بالأموي ما ذكره صاحب افتتاح الأندلس حول رحيل عمر بن حفصون ت306هـ إلى تاهرت بعد عقابه من عامل رية الثائر على الأمويين، فجاز البحر إليها، غير أن شيوخها اكتشفوا أمره بها أثناء مجالستهم له، فانطلق إلى الأندلس خيفة من انكشاف أمره من بني اليقظان مالكي تاهرت وموالى بني أمية[72].

وأشارت المصادر كابن الآبار إلى وجود موالى مصطنعين من أفراد الأسرة الرستمية لخدمة الأمويين، منهم محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم سنة 214هـ و216هـ، أحد الأدباء والشعراء، استعمله الأمير عبد الرحمن بن الحكم" عبد الرحمن الأوسط" على بعض أعماله، كاشذونة أيام أبيه الحكم، ولما آلت الخلافة لعبد الرحمن سيره لبلاطه لتولية الوزارة والحجابة، وأصبح من أبرز القواد الذين فتح إشبيلية سنة 230هـ[73].

2.3: علاقة تاهرت مع سجلماسة.

لم تمدنا المصادر بالقدر الكافي عن علاقة تاهرت بسجلماسة سوى إشارات عن وجود مصاهرة بين الرستمين وبني مدرار خلال فترة عبد الرحمن، نتج عنها ظهور أحد أحفاده، وهو ميمون بن أبي مالك مدرار بن المنتصر بن اليسع "بن أروى الرستمية"، ومخافة أهل سجلماسة من تربعه على عرش الملك، الأمر الذي يساهم في انضمام ملكم لحاضرة تاهرت، قاموا عليه بزعامة أخيه ميمون بن ثقية ت 260، وانتهى الخلاف بتوليته وإخراج ابن الرستمية عن سجلماسة، وتعداه إلى إخراج أبيه مدرار وأمه إلى قرى سجلماسة [74].

---

[71] ابن حيان أبو مروان خلف، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح، محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1410. 1993، ص: 268. 269 /. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح، شوقي ضيف، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص: 48.

[72] ابن القوطية أبو بكر محمد، تاريخ افتتاح الأندلس، تح، إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1410. 1989، ص: 103. 104 /. ابن خلدون، نفسه، ج4، ص: 172.

[73] ابن الآبار أبي عبد الله، الحلة السيراء، تح، حسين مؤنس، ج2، ط2، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ص: 372. 373. ابن عذارى، نفسه، ج2، ص: 83 /. العذري أحمد بن عمر، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع البلدان، تح، عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ص: 99.

[74] البكري، نفسه، ص: 150/. ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث، تح، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدر البيضاء، 1964، ص: 143. 144/. ابن عذارى، ج1، ص: 107.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

3.3: تاهرت وعلاقتها مع المشرق:

تعود علاقات حاضرة تاهرت ببلاد المشرق إلى ما قبل الفتح، غير أن ما يشار إليه بدقة إلى تلك العلاقات فتعود للسنوات الأولى من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ذكر الرقيق القيرواني أن جيش عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه وطأت أقدامه تاهرت خلال حملته الثانية سنة62هـ لبلاد المغرب، ووجدها عامرة بسكان البربر والروم، ففل جموعهم عنها بعد معارك شديدة [75].

كما أن هذه العلاقات تعززت أكثر في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية بعد قيام الدولة الرستمية عندما ترامت أخبارها إلى إباضية البصرة الذين أرسلوا الوفود محملة بالأموال؛ للمساهمة في بنائها، وخاصة مع السنوات الأولى لتأسيسها[76].

ولعل هذه الأموال كانت لحمايتهم لمذهبهم، وتدعيمًا لأنصاره بالمغرب، كونهم وجدوا أنفسهم في فلك بني العباس، فوجهت الأموال بطريقة سرية للمغرب؛ لمساعدتهم على بناء وإحياء المذهب بعيدًا عن أعين العباسين.

كما يشار إلى جملة من الوافدين على تاهرت، منهم شعيب بن معروف المصري أحد مشايخ الإباضية بمصر، فحلت هذه الشخصية أيام إمامة عبد الوهاب؛ طمعًا في الولاية بعد معرفته الخلاف على الإمامة بين أهل تاهرت، فتنكّروا ضد عبد الوهاب مما نتج عنه عدة اختلافات أدت إلى صراع وحروب في ذلك[77].

غير أنه على إثر تنامي قوة بني رستم، وامتداد ملكهم، ووصول أخبارهم إلى بني العباس؛ قرروا إزالتهم، فأنفذوا إليها جيشًا بقيادة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فسار نحو المغرب، واجتمعت نفوسة، ومنعته من اجتياز تاهرت سنة 283هـ، فحدثت معارك بين جند العباسين وإباضية جبل نفوسة، انتهت بانقراض الإمامة [78].

4.3: علاقة تاهرت مع بلاد إفريقية.

نستخلص مما أشار إليه ابن سعيد المغربي إلى علاقة تاهرت مع إفريقية التي تبعد عنها تسعة عشرة مرحلة جازمًا أنها لم تكن في طاعة صاحب إفريقية، ولا بلغت عساكر المسودة إليها، ولا دخلت في سلطان بني الأغلب[79].

غير أن ما يشار إليه في المصادر مشاركة عبد الرحمن بن رستم بجيشه في حصار طبنة إلى جانب أبي حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي زعماء البربر من الصفرية والإباضية، وكان عمر بن حفص عمر ت154[80] عامل

---

[75] الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، تح، محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني، 1414. 1994، ص: 43.

[76] ابن الصغير، نفسه، ص: 28/. أبي زكرياء، نفسه، ص: 83.

[77] الشماخي، السير، ج1، ص: 131. 132/. الدرجيني، نفسه، ج1، ص: 50.

[78] أبي زكرياء، نفسه، ص: 154. 155 .

[79] الحموي، نفسه، ج2، ص: 8 /. البكري، نفسه، ص: 90.

[80] هو أبي جعفر عمر بن حفص استعمله المنصور العباسي على أفريقية سنة 151هـ بعد مقتل الأغلب بن سالم ثار ضده البربر سنة 154هـ ت 155هـ /. ابن الأثير أبي الحسن، الكامل في التاريخ، مر، محمد يوسف الدقاق، ج5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407. 1987، ص: 195.

بني العباس بالقيروان قد توجّه إليها؛ لغرض بنائها، غير أن جموعهم مالبثت أن انهزمت أمامه، وقام بإرسال بعثات لعبد الرحمن بن رستم بتهودا، فتمكن منه، وفل ابن رستم منهزمًا أمامه إلى تاهرت[81].

ونظرًا لاستمرار الاضطرابات بين العناصر البربرية بإيعاز من أصحاب إفريقية الصفريين ضد بعض أعمال الرستميين أصحاب المذهب الإباضي الذين أضحوا في صراع مفتوح مع جيرانهم في الشمال الشرقي؛ رغب عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ في موادعة صاحب إفريقية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعة فاستكان البربر[82].

وفي سنة 196هـ ثارت قبيلة هوارة بمدينة طرابلس، فتقدم عامل العباسيين وأخرجهم، فاستنجدوا بالإمام عبد الوهاب، واجتمعوا معه وتقدموا من جديد لحصار المدينة، غير أن الأغالبة عاهدوهم وصالحوهم على أن تكون الصحراء من أعمال طرابلس لهم فكان ذلك، وتم الصلح بين الجانبين[83].

وذكر أن الأغالبة بنوا مدينة العباسية[84]سنة 227هـ قرب تاهرت، فأحرقها الإمام أفلح، وكتب إلى صاحب الأندلس أبي المطرف عبد الرحمن بن الحكم ت 238هـ يعلمه بذلك، فبعث إليه الأخير 100 ألف درهم جزاء على فعله[85]. ويبدو أنها بنيت لمضايقة تاهرت، والقضاء على طرق التجارة[86].

ومما يشار إليه في كتب التاريخ تدخل الأغالبة في شؤون تاهرت بتقديم الدعم المادي والنفسي للثورة ضد الإمام أفلح، عقب مقتل محمد من قبل أحد موالى بني الأغلب، يقال له خلف الخادم [87] .

5.3: انهيار حضارة تاهرت.

لم تشر المصادر بما فيه الكفاية عن حاضرة تاهرت، لا سيما بعد انهيارها على أيدي الشيعة سنة 296هـ، غير أنها لم تستثن عنها بعض الإشارات هنا وهناك، مقتصرة بوصفها مدينة أو أحد الأعمال الخاضعة لمركز العبيدين بإفريقية، أو تحت حكم القبائل البربرية التي غالبًا ما خطبت للأمويين؛ معلنة الولاء لهم، خاصة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله، وفي هذا قال ابن خلدون في سياق حديثه عن البربر أنهم بتاهرت بين المولات والانحرفات[88].

---

[81] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 147. ج4، ص: 246 /. ابن عذاري، نفسه، ج1، ص: 75.

[82] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 148.

[83] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 185. ج4، ص: 151 /. الشماخي، نفسه، ج1، ص: 185.

[84] بناها أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ت 242هـ، قرب القيروان ونسبها للعباسين، الحموي، نفسه، ج4، ص: 75 /. ابن الأثير، نفسه، ج6، ص: 66.

[85] ابن الأثير، نفسه، ج6، ص: 66 /. ابن خلدون ، نفسه، ج4، ص: 256.

[86] الباروني، المرجع السابق، ج2، ص: 186.

[87] ابن الصغير، نفسه، ص: 71.

[88] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص: 136.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

ففي الحديث عن غزوها من أبي عبد الله الشعي[89] سنة 296هـ الذي أتى على أهلها ومنشأتها ومرافقها، وتعداه إلى حرق الأخضر واليابس، أشار ابن الأثير أن سير جيوشه أحدث الخوف في نفوس القبائل الزناتية، وزالت عن طريقه، وأرسلوا رسلهم، ودخلوا في طاعته، حيث أنه عندما دخل المدينة نهبها، وانتهك حرمتها، وأجلا كثيرًا من أهلها، وجعلهم أذلة، وكان دخوله إليها بالأمان، لكنه غدر وقتل أهل البيت الرستمي وأهل الحرث والنسل، فانقطعت الإمامة بها بموت آخر أمراء الرستمين يوسف بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب، وهروب يعقوب بن أفلح وبقية العائلة الرستمية إلى جهة ورجلان، وعبر ابن الأثير أنه زال ملك بني رستم من تاهرت، ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت " وأضحت حاضرتهم تحت سيطرة الشيعة، وهؤلاء عينوا عليها عاملًا خاضعاً لسياستهم، وأصبحت قاعدة لإغارة الفاطمين على بقية النواحي، ففي سنة 305 هـ احتل عامل تاهرت إمارة نكور الموالية لبني أمية، وصارت بعد هذا التاريخ ساحة صراع بين العبيدين وبعض زعماء القبائل البربرية من بني خزر وبني يفرن الرافضة لحكم الشيعة، وبين التبعية الاسمية لبني أمية تارة والخضوع للعبيدين تارة أخرى، وما يدل على ذلك غزو الفاطميين لنواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط سنة 315هـ إثر اضطراب بلاد المغرب عليهم، مما اضطر بمحمد بن الخزر الفرار منها، وفي سنة323هـ تولاها حميد بن يصليتن بعد قيامه على عامل الفاطميين، وإعلان ولائه للأمويين، ليتركها سنة 333هـ بعد توجهه إلى الأندلس، ففسح المجال للعبيدين لاحتلالها، وتعيين ميسور الفتى عاملاً، غير أن فترته لم تطل؛ بسبب اضطراب أهل تاهرت من بني خزر وزناتة، حين انفرد بحكمها يعلي بن محمد اليفرني القائم ببيعة الشيعة، لكن سرعان ما قطعها لصالح الأمويين إلى غاية قدوم جوهر الصقلي قائد الشيعة سنة 349هـ الذي عمد إلى تخريبها حتى أنشدها الشعراء تحصرًا علة ملك بنني رستم قائلين[90]:

ألما على رسم بتهرت داثرة عفته الغوادي الرائحات فاقفَرَ

كان لم تكن بتهرت دار لمعشر فَدمرهَا المِقدار فيمن تدمرَأ[91]

غير أنه بعد هذا التاريخ أصبحت حاضرة ملك الرستمين مدينة هامشية تابعة لأعمال العبيدين، وتارة تحت حكم القبائل البربرية وطاعة الأمويين بين الفينة والأخرى، حين انتهى بها المطاف بعد القرن الرابع هجري إلى

---

[89] أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء، الشيعي من أهل صنعاء، وقد سار إلى ابن حوشب النجار، وصحبه بعدن، وصار من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر، فلما توفى الله الحلواني وأبا سفيان أرسله ابن حوشب إلى أرض المغرب، أين أصبح داعية لعبيد الله المهدي ناصرًا لمذهبه ودعوته، وأحد القادة الزاحفين على القيروان، دار ملك الأغالبة، قتله عبيد الله مع أخيه، واستأصل أهل بيته. ابن الآبار أبو عبدالله، الحلة السيراء، ح1، ص: 193/ . ابن الأثير، نفسه، ج6، ص: 450.

[90] ابن عذاري، نفسه، ج1، ص : 153. 197 .199 /. ابن أبي زرع أبو الحسن، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972. ص89 .90 / . الخطيب، المصدر السابق ، ص: 153 .164.155.

[91] ابن عذاري، نفسه، ج1، ص199

مدينة تابعة لقبائل بربرية من بني وماتوا وبني يلومي، ثم صار أمرها لبني عبد الواد وتوجين[92]من بني مادين وقاعدته لهذا العهد بتلمسان حسب ما أشار إليه ابن خلدون[93].

الخاتمة:

يتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن مصادر التاريخ الوسيط:

- أعطت نظرة شاملة عن منارة تاهرت في شتّى مجالات الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية خاصة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين.
- كما منحتنا مادة علمية عن مدينة تاهرت ما قبل التأسيس إلى السقوط وصيرورتها إلى التهميش الحضاري.
- وعرفتنا بمراحل تأسيس مدينة تاهرت، وأهم الأوضاع السياسية التي ساهمت في بنائها، وأهم الأحداث التي مرت بها وعلاقتها بالمماليك الإسلامية المجاورة.
- عرفتنا هذه المصادر بالموروث الثقافي والفكري لحاضرة تاهرت، والذي عرف نشاط أهلها العلمي وازدهارها، حتى أصبحت منارة العلم والعلماء تضاهي إفريقية ومدينة فأس التي قصدها العلماء والفقهاء من أنحاء البلاد الإسلامية جمعاء.
- أعطتنا صورة واضحة عن تركيبة المجتمع التاهرتي، وأهم الأمم والأجناس التي استوطنت المنطقة من العناصر البربرية والرومانية والعرب المسلمين، وأهم الأحداث والوقائع التي جرت بينهم.
- أمدتنا بمعلومات حول الواقع الاقتصادي لمدينة تاهرت من زراعة وتجارة، وانفتاحها على البلدان الإسلامية، الأمر الذي ساهم في تنشيط القوافل التجارية بين تاهرت بلدان مصر والسودان الغربي وسجلماسة فأس وبعض أسقاع الصحراء الجنوبية.
- يعدّ كتابا أخبار الأئمة الرستمين لابن الصغير المالكي، وكتاب تاريخ إفريقية والمغرب للبكري من أهم المصادر التاريخية التي أرّخت لحاضرة تاهرت بشكل جليّ، بحيث استقت المصادر اللاحقة مجمل مادتها العلمية من هذين المصدرين، ككتاب السير لأبي زكرياء، والطبقات للدرجيني، والسير للشماخي. غير أننا نجد جل المصادر التاريخية اللاحقة لم تهتم بالتأريخ لحاضرة تاهرت، لا سيما بعد سقوطها، فنجدها تشير لها كعمل من الأعمال التابعة لسلطان العبيدين تارة، وإلى سلطان بني أمية تارة أخرى، مرفوقة بين التبعية الاسمية والفعلية؛ كونها مدينة داخلية بعيدة عن أطراف ممالكهم ومنافذ طرقهم، فبقي أمرها هكذا إلى اندثارها في أعمال بني توجين وبني عبد الواد من بعدهم. ولعل هذا التهميش الذي لحقها من المصادر خاصة بعد سقوطها له ما يبرره من دوافع مذهبية؛ كونها دولة ذات مذهب إباضي مخالف للمذهب السني، فكان طبيعيًا أن يعدل جل المؤرخين السنيين عن التاريخ والكتابة.

---

[92] بنو تجين أول ملك منهم هوعبد القوي بن وزمار بن تجبن بن تميم ين على بلاد ونشريس وشرشال وشلف والجزائر إلى تلمسان منذ سنة 442هـ وبنو عبد القوي بتوارثون إلى أن ضاق ملكهم واندثر رسمهم بظهور الزيانين. ابن الخطيب، نفسه، ص: 167. 168.

[93] ابن خلدون، نفسه، ج6، ص:134.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الآبار أبو عبد الله محمد ت 658هـ، الحلة السيراء، تح، حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج2 .
- ابن الأثير أبو الحسن علي ت 637هـ، الكامل في التاريخ، مر، محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407. 1987، ج5.
- الإدريسي أبو عبد الله محمد ت 559هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج3، مكتبة الثقافة الدنية، بور سعيد، القاهرة.
- الأزكوي سرحان بن سعيد، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تح، محمد نجيب حبيب، ومحمود بن مبارك السليمي، ط2، وزارة التراث والثقافة العمانية، 1434. 2013. ج3.
- الأنصاري شمس الدين أبو عبد الله محمد ت 727هـ، نخلة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، 1865.1281.
- الباروني عبد الله، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية، مطبعة الأزهار البارونية، ج2.
- البرادي أبو القاسم بن إبراهيم، الجواهر المنتقاة، تعليق، أحمد بن سعود السيابي، ط1، دار الحكمة، لندن، 2014.
- البغدادي أبو منصور عبد القاهر ت429هـ، الملل والنحل، تح، البير نصري نادر، دار المشرق، بيروت ، لبنان، 1986.
- البغطوري مقرين بن محمد، رويات الأشياخ، تح، عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، مكتبة خزائن الآثار، عمان، بركاء، 1438. 2017.
- البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت487هـ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- التالية سعدو، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها، مجلة عصور الجديدة، العدد1، 2011هـ/ 1432هـ، وهران، الجزائر، ص: 63. فطيمة مطهري، المرجع السابق.
- ابن حزم أبي محمد علي ت 456هـ، جمهرة أنساب العرب، تح، إليقي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1368، 1947.
- الحميري محمد عبد المنعم ت750هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.
- ابن حوقل أبو القاسم محمد ت بعد 367هـ، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.
- ابن حيان أبو مروان خلف ت 469هـ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح، محمود مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1410. 1993.
- ابن الخطيب لسان الدين محمد ت 776هـ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تح، أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدر البيضاء، 1964. ج3.

- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط، خليل شحادة، مر، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421. 2000، ج4.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملاين، بيروت ، لبنان، ط15، 2002، ج2.
- الدرجيني أبي العباس أحمد ت670هـ، طبقات المشايخ بالمغرب تح، إبراهيم طلاي ، مطبعة البحث ، قسنطينة ، الجزائر، 1394. 1974، ج1.
- الرقيق القيرواني أبو إسحاق ابراهيم ت 420هـ، تاريخ إفريقية والمغرب، تح، محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني، 1414. 1994.
- ابن أبي زرع أبو الحسن علي ت 726هـ، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- أبي زكرياء يحي بن أبي بكر ت 471هـ، سير الأئمة وأخبارهم، تح، إسماعيل العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1979. 1933.
- ابن سعيد أبو الحسن علي ت 685هـ، كتاب الجغرافيا، تح، إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري، بيروت، 1970.
- ابن سعيد علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تح، شوقي ضيف، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- قوراش سمية، إسهمات علماء تاهرت في الحركة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي160هـ، 296هـ /777م، 909م، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر،2018/ 2019.
- الشماخي أحمد بن سعيد ت 928هـ ، السير، تح، أحمد بن سعود السيابي، مطابع النهضة، مسقط، 1407. 1987، ج1.
- ابن عذارى أبو العباس أحمد، كان حيًّا سنة 612هـ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح، س كولان و إليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ج1.
- العذري أحمد بن عمر ت 478هـ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع البلدان، تح، عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.
- ابن القوطية أبو بكر محمد ت 367هـ، تاريخ افتتاح الأندلس، تح، إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1410. 1989.
- محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج2.
- المقدسي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ت 380هـ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع بمدينة ليدن المحروسة، 1877.
- المقري أحمد بن محمد ت 986هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408. 1988، ج3.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تع، سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، الكويت، 1985.
- مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح، يوسف الهادي، ط1، دار الثقافة، مصر، القاهر، 1419.1999.
- مطهري فطيمة، عوامل ازدهار الحياة الفكرية والثقافية في الدولة الرستمية ودرو المرأة فيها خلال القرنين2هـ، 3هـ/ 8م، 9م، مجلة كان التاريخية، العدد19، 2013.
- دور أئمة تيهرت الرستمية في تشجيع وتطوير الحركة الفكرية خاصة العلوم الدينية، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج1، العدد1، تلمسان الجزائر،2013.
- الوسياني سليمان بن عبد السلام، سير الوسياني، تح، عمر بن لقمان بن حمو سليمان بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، مسقط، عمان، 1430. 2009.،ج1.
- ياقوت أبو عبد الله بن عبد الله الحموي ت 630هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397، ج2.
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ت 292هـ، البلدان، تح، محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ب ت.